نخب المقتطفات

ننشر تحت هذا العنوان أحسن ما نطالعه
في المجلات والجرائد المختلفة
(الاخاء)

الجامع

﴿ للكاتب الاجتماعي الكبير امين افندي الريحاني ﴾

لم أر بين سائر اماكن العبادة التي أعرفها وقد حملت نفسي المتسجة وركبتي المتعبتين الى هياكل عديدة — أفضل من الجامع وما أدراك ما الجامع ؟

هو المكان الذي يؤثر فيَّ بديمقراطيته اكثر من سواه ، لما فيه من شواعرها المتنوعة ، فليس في الجامع ما يداهن الاغنياء ، ويكسر قلوب الفقراء ، او يرد تفيلي الاحمال ، أو يخذل أهل الورع من الاتقياء ، وليست بشاشة الجامع بمقاعده المزدوجة ، ولا رغبة الناس فيه لصدقاته ، أو للخدمة — الصلاة — التي تقام فيه نهار الجمعة ، مأخوذة من القرآن ، وهذا لا تحريف ولا تبديل ، بل هي دائماً لحن من البلاغة تشتقه الاسماع ، فيحدث خشوعاً في القلوب لدى اتجاه الافكار نحو الرب الاعلى

الجامع كبير يسع عادة جماعة الخطباء حتى والعابدين النوام ، ويبقى بعد ذلك فراغ لا يحد ، فالنبر لا يكون ابداً قريباً من الزوايا ساحرة الشكل التي تظلل جماعة المسلمين ونفوسهم ، وهم على اختلاف طبقاتهم يجتمعون للصلاة — تحت سقف واحد فتجد بينهم درويشاً متيماً ، وشحاذاً أعمى ، وحمالا منهوك القوى ، وأعرابياً عليه غبار البرية النائية . وهم كلهم يؤمون الجامع بتمام الورع والخشوع ، طلباً للراحة بعد العناء ؟ أو الاغماض لغفوة قصيرة فبعضهم يسجدون أمام المحراب ؟ وآخرون

يتمددون على الرخام البارد تحت الاروقة ، في الوقت الذي يكون فيه شيخ جليل أو أمير عريق في الحسب والنسب راكعاً على سجادة عجمية ثمينة ثم يخر ساجداً ، فينهض قائماً في صلاته

— هنا درويش يتمتم قائلا « بسم الله الرحمن الرحيم» ويعد خرزات سبحته الى ان تصل نفسه الى درجة الغيبوبة :

وهناك فقير يتثاءب ، متبعا تثاؤبه بقوله « يا الله ! يا كريم ! » ويخر مكباً على وجهه

وهناك بدوي متمدداً تحت الرواق كأنه جثة هامدة ، وليس من ملحن أو جاهل يتعدى على احد المصلين ، أو ينكر عليه

***

الجامع مأوى يرتاح اليه الغني والفقير ، الشحاذ والامير ، وهيكل يضم المؤمنين ، وناد يقبل اولاد الله على السواء . هو مكان يمتد فيه المنبوذ على حجر يسند اليه رأسه ، فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التي تعلوه . وليس يتخلل سكينة ذلك المكان الرهيب الا كلمات « يا الله ! يا كريم ! » يا رحمن ! » يا رحيم ! » — التي تلفظها الصدور بين وقت وآخر . ولئن كان الجامع قائماً في سوق النحاسين ندر دخول صوت اليه من الخارج ، يؤذي رهبة المكان وسكينته . وان النفس فيه لتخشع من هذا السكون ، فتدعو الجسد الى الهدوء والعقل الى التحليق في الملاء الاعلى . تنتبه القلوب ، بلا صنوج ولا أجراس ، بلا آلة موسيقية ، ولا جوقة منشدين ومغنين ، بلا رسوم ، ولا تماثيل — ولكن باضواء الايمان الدائمة التي لا تطفأ ، تدفع النفس فتجد سبيلا لها خلال السكون ، فائق الوصف ، وبين الرهبة التي لا تحد — الى العزة الالهية الى الاله، الواحد ، الفرد ، الصمد ، الى الله !

***

دخلت ذات يوم في جامع ، باحدى القرى لاستريح — وقد خلعت حذائي

عند الباب ، متأملا في هذا التقليد الحكيم . فلذلك دواع روحية وحسية معاً . فانه اذا كان من الدناسة ان تدخل في بيت الله ، وحذاؤك في قدميك . فكم بالحري اذا لطخت سجاد الجامع الثمين باوحال الطريق وغبارها ! ؟ ناهيك اني خلعت حذائي امتثالا للعادة ، ولانه كان ضيقاً على قدمي . ولا اخال الا كثرين يرتاحون الى هذا التقليد ، ويجدون فيه راحة ، كما شعرت !

ولم يكن قد دخل في الجامع سوى مصلين . رجل وقور ، طاعن في السن جلس في احدى الزوايا ، وشحاذ قريب من العراء ، جامد في الزاوية الاخرى — أما أنا فقد جلست على حصير ، تحت رواق ، مسنداً ظهري الى عمود ، ممدداً ساقي . وكنت اذ ذاك كاني في منزلي ! !

ان الراحة من أصول التعبد الحقيقي وهذا ما تجده في الجامع ، في كل ساعة من ساعات النهار ، وفي كل ساعة من ساعات الليل . ولقد صليت كما أحببت وخرجت مع رفيقي في الصلاة ، واخوي بتسبيح الله : أما الشحاذ فكان حمالا ، وقد ترك حمله عند الباب . واذ تعذر عليه رفعه ، أسرع الشيخ المهاب لمعونته مشمراً كميه الحريريين عن ساعديه ، مبتدئاً بقوله : « بسم الله ! » . وانحنى الحمال تحت حمله الثقيل ، وقد تشنجت رقبته بالحبل المشدود حول رأسه ، ثم مشى بخطوات متثاقلة ولكنها خطوات ثابتة — بقوة الله

والتفت الشيخ الي ، وقال لي مشتبهاً :

— « أانت مسلم ؟ »

فأجبته ، وانا أشد حذائي : « ولكني أعبد الله واحترم النبي ! »

حينئذ دعاني الى تناول الغذاء على مائدته فان الغرباء اذ يلتقون في الجامع يصبحون اخواناً ؟

(القصص)